موضوع المحاضرة : تعريف علم المعاني وعلاقاته

إعداد مدرس المادة : الأستاذ المساعد الدكتور مرتضى عبد النبي الشاوي

أولا : علم المعاني ، نشأته وتطوره

معلوم أنّ الكلام : هو الألفاظ التي تدلّ على معان يحسن السكوت عليها ، والمعاني جمع معنى ويراد به في اللغة ، المقصود والمطلوب من اللفظ أو الكلمة ، أما في الاصلاح البلاغي فهو التعبير بالألفاظ أو القواعد والأصول التي تدرك وتعرف بها أحوال الكلام العربي في مطابقته مقتضى الحال بحيث يكون مناسباً للغرض الذي سيق له فمثلاً ذكاء المخاطب حال يقتضي معه ايجاز القول .

فعلم المعاني حدد عند الجرجاني (٤٧١هـ) بارتباط الألفاظ بمعانيها ، وأسمّاه بالنَظْم إذ قال ((لا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك هذا ما لا يجهله عامل ولا يخفى على أحد من الناس)) .

علم المعاني هو أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة : المعاني والبيان والبديع ، وقد كانت البلاغة العربية في أول الأمر شاملة لمباحث هذه العلوم بلا تحديد أو تمييز .

أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحون بها منحى التخصص والاستقلال كما أخذت كل فن بلاغي تتبلور وتتلاحق واحدة بعد الأخرى .

ظل الأمر حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري (ت ٤٧١هـ) ، ووضع نظرية علم المعاني في كتابه (دلائل الاعجاز) ، ونظرية البيان في كتابه (أسرار البلاغة) كما وضع ابن المعتز من قبله أساس علم البديع .

عبد القاهر الجرجاني هو واضع أصول علمي المعاني والبيان ومؤسسهما في العربية .

وهو الذي أقام أركان علم المعاني وعقد قعّد أصوله وهذّب مسائله .

وقد سبقوه في الإشارة إلى نتف منه من أمثال الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وأبي الهلال العسكري (ت ٣٣٧ هـ) في كتابه (الصناعتين : الكتابة والشعر)

ومن الأوائل ممن اتجهوا إلى الاختصار والتلخيص الفخر الرازي (٦٠٦هـ) في كتابه (نهاية الايجاز في دراية العجاز) فقد اختصر فيه كتابي (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني .

ظهر بجانب الرازي وفي عصره عالم ضرب بسهم وافر في الفلسفة والمنطق وأصول الفقه والاعتزال واللغة والبلاغة وكان له تأثير خطير على البلاغة العربية ذلك العالم هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) صاحب كتاب (مفتاح العلوم) الذي جعله أربع أقسام : قسماً في علم الصرف ، وقسماً في علم النحو ، وقسماً في علوم البلاغة ، وقسماً في علم الشعر .

لقد سارت دراسة البلاغة قبل السكاكي على منهاج من عدم الفصل بين فنونها .

وشهرة السكاكي في البلاغة مصدرها القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) فقد أفرد هذا القسم من كتابه للكلام عن علمي المعاني والبيان ولواحقهما من البلاغة والفصاحة والمحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي .

فبجهود البلاغيين الذين سبقوه وخاصة عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) والزمخشري (محمود بن عمر (٥٣٨هـ) والفخر الرازي (٦٠٦ هـ) استطاع السكاكي تحقيق أمرين :

أحدهما : أن ينفذ إلى عمل ملخص دقيق لما نثره البلاغيون الذين سبقوه .

الثاني : أن يصوغ كل ذلك في صيغ مضبوطة محكمة مستعيناً فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتعريف والتقسيم والتفريع والتشعيب ، وبهذا تحولت البلاغة في مفهومه أولاً ، وفي تلخيصه ثانياً إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم فهي عنده قوانين وقواعد صبت في قوالب منطقية .

وقد عرّف السكاكي علم المعاني بقوله ((إنّه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليتحرز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)) .

فتراكيب الكلام عامة وإنّما يقصد تركيبات البلغاء عمّن تعرف بلاغتهم وخواص التراكيب ما يسبق من فهمها عند سماعها ، والفهم عند صاحب الفطرة السليمة .

وهو عند القزويني (ت ٧٣٩ هـ) : ((علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)) .

فموضوع علم المعاني فيما تقدم : اللفظ العربي من ناحية إفادته ما بعد مقتضى الحال ، أو المعاني الثواني أو الأغراض التي يساق من أجلها الكلام أو وفق الأغراض التي يسير فيها الكلام وفيه يحترز من الخطأ في تأدية المعاني المقصودة والمرادة .

ويمكن حصر موضوعات علم المعاني التي وردت في القسم الثالث من كتاب (المفتاح) للسكاكي على النحو الآتي :

١-الخبر والطلب

٢-الاسناد الخبري باختلاف السامع من حيث خلو الذهن أو الشك أو الإنكار

٣-الاسناد وبيان أحوال المسند إليه والمسند من حيث : الحذف والذكر والتنكير والتعريف والتقديم والأخير والتخصيص والمقتضيات البلاغية لذلك

٤-الفعل ومتعلقاته

٥-الفصل والوصل

٦-الايجاز والاطناب وبيان كيف أنهما نسبيان

٧-القصر وأنواعه وطرفه .

٨-الطلب ويندرج تحته :

أ- مقدمة عن الطلب مستمدة من كلام المناطقة عن التصور والتصديق وما يحصل في الذهن وما يحصل في الخارج .

ب-أنواع الطلب الخمسة : التمني والاستفهام والأمر والنهي والنداء وأدوات كلّ نوع منها ووظائفها .

ت-الأغراض البلاغية أو المعاني الاضافية التي يخرج الطلب عن مانيه الأصلية من أجل الدلالة عليها وذلك مثل : التعجب والانكار والاستبطاء والنفي .

توافرت شروحات وتلخيصات على كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي :

أولاً : الشروحات

أ- مفتاح المفتاح لقطب الدين محمود الشيرازي (٧١٠هـ)
ب-شرح المفتاح لمحمد بن مظفر الخلخالي (٧٤٥هـ)
ت-شرح القسم الثالث من المفتاح للسيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ)
ث-شرح المفتاح لابن كمال باشا (٩٤٠هـ)

ثانياً : التلخيصات

أ- المصباح في اختصار المفتاح لبدر الدين بن مالك (٦٦٨هـ)
ب-تلخيص المفتاح لأبي عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (٧٣٩هـ)
ت-الفوائد الغياثية في علوم المعاني والبيان والبديع لعبد الرحمن الشيرازي (٧٥٦ هـ)

وهناك شروحات لتلخيص المفتاح للقزويني :

أ- إيضاح التلخيص للخطيب القزويني
ب-مفتاح تلخيص المفتاح لمحمد بن مظفر الخلخالي (٧٤٥هـ)
ت-عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي (٧٧٣ هـ)
ث-شرح تلخيص القزويني لمحمد بن يوسف ناظر الجيش (٧٨٨هـ)
ج- شرح تلخيص المفتاح لمحمد البايرتي (٧٩٢هـ) وشمس الدين القونوي (٧٨٨هـ)
ح- الشرح الكبير والشرح الصغير للتلخيص لسعد الدين التفتازاني (٧٩٢هـ)
خ- مواهب المفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي (١١١٠هـ)

وممن نظم (تلخيص المفتاح) شعراً :
أ- أنبوب البلاغة لخضر بن محمد مفتي أماسية
ب-عقود الجمان لجلال الدين السيوطي

ت–الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون لعبد الرحمن الأخضري

وممن قام باختصار (تلخيص المفتاح) : عز الدين بن جماعة ، وأبرويز الرومي ، وزكريا الأنصاري .

ثانياً : علاقات علم المعاني بالعلوم الأخرى

أما مكانته بين العلوم الأخرى فهي أنّه ألصقها بالقرآن الكريم وبه عُرف إعجازه .. بل هو علم يشتمل على سائر العلوم وليس بالضرورة أن يشتمل عليه علم النحو أو الصرف أو البديع مثلاً، فلا يعتد فيه بكلام لم يراعَ فيه الوجه الصحيح لبناء الكلمة في الصرف، ولا بكلام نُصب فيه ما حقه الرفع ، ولا بصورة بديع لم يحسن صاحبها التأتي إليها إنّ ثمرة هذا العلم هو الوقوف على الأسرار التي يرتفع بها شأن الكلام ويفضل بعضه بعضاً، ومعرفة إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله بم من حسن الوصف ولطف الإيجاز وجودة السبك وبراعة التراكيب وجزالة الكلمات وعذوبة الألفاظ ومحاسن الكلام، والوقوف على بديع القول وأسرار البلاغة وأسباب الفصاحة وغير ذلك .

ثالثا : فوائد علم المعاني :

١–معرفة الإعجاز القرآني في إدراك كلام الله وجودة سبكه وحسن وضعه ورصفه ولطف ايجازه ووصفه وبراعة تراكيبه وسهولتها وعذوبة ألفاظه وجمالها وسلامتها وجزالتها .

٢–التمكن من إدراك معاني البلاغة والفصاحة في منثور الكلام العربي ومنظومه ليستطيع القاريء أو السامع من مجاراته والحذو حذوه والتفريق بين الجيد والرديء وليعرف السر في افتخار النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله) بقوله : ((أنا أفصح من نطق بالضاد)) وقوله ((أوتيتُ جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً))

٣–معرفة مقاصد الكلام واتجاهاته فمواضع الشكر والاعتذار غير مواضع المديح أو الهجاء كما هو معروف عند عامة العرب .

٤-إدراك قوة الأساليب فالجملة الأسمية غير الجملة الفعلية إذ الأولى تأتي لإفادة الثبات لمقتضى المقام في حين إن الجملة الثانية لا تصل الى مستوى أدائها وقوة إثباتها .

فعلم المعاني يبنى على عناصر الكلام التي تعتمد الجمل إذ لكل جملة ركنان أساسيان هما : المسند إليه والمسند .